

الاغتراب الديني

أ.نذير مخلوفي

جامعة الجزائر 02

ملخص :

إن الميل الديني من إحدى الخصائص الموجودة في كيان الإنسان ، مثل الميل إلى الاعتقاد بالله أو التعرف عليه ، ومن ثم يحدث ما يسمى التطهير الروحي و هي موهبة خلقها الله في طبيعة الإنسان. نتيجة لضعف هذا الاتجاه من تأثير هذه العوامل البيئية و خروجه عن طبيعته الأصلية.

ويمكن أن يختفي هذا الميل من البشر تجاه الله بعوامل أخرى ، فتكون النتيجة ضمو هذه العلاقة الروحية بين الإنسان وربه ، والتي يعقبها الانهيار الديني للإنسان في نهاية المطاف ، و دخوله في حالة من الاغتراب الديني.

Abstract

The religious tendency is one of the characteristics that . human being a wns such as the tendency to believe in god allah or to know him , and as a resuet , a spiritual purgation takes place it is a gift (talent) created by god in human's nature because of the work tendency caused by the environment circumstances and his change from his his natural origin this tendency can disappear and it causes the absence of the purgation relation between god and humans and comes the religious .

قبل أن نتطرق إلى الاغتراب الديني و حيثياته ، نشير إلى أن الدين يلعب دورا أساسيا و مهما في تأسيس بعض ركائز الحياة اليومية و دعمها ، و تعزيز بعض جوانبها من خلال دوره في الأسرة و في التكافل الاجتماعي ، و في وحدة المشاعر ووجدان الجماعات المختلفة الموجودة في المجتمع .

يمكن تقديم تعريفا مبدئيا للدين بأنه : " نظام له قوانينه و تقاليده و تعاليمه الخاصة، ويشتمل هذا النظام

على مجموعة من القضايا والتصورات النظرية الإعتقادية وهي التي تسمى بالعقيدة، إلى جانب مجموعة من الشعائر والطقوس التعبدية والممارسات السلوكية وهي التي تعرف بالشرعة، ويتعلق هذان الجانبان الإعتقادي أو النظري أو التشريعي أو العملي، بطاعة الفرد و الجماعة أو خضوعهم لموجود أو موجودات ذات طبيعة سامية مقدسة " .¹

فالدين حقيقة أزلية تقع خارج الزمان و المكان ، و لذا فكل ما في استطاعة البشر هو الخضوع ، و الخنوع ، و الطاعة ، و الالتزام التام لهذه الحقيقة الأزلية ، و إتباع ما يعتقد أنها جاءت به خلاص الإنسان و سعادته في صورته المطلقة كإنسان ، أو كفرد ، أو في حيز المجتمع .

و بعض من يقولون بذلك لا ينفون إمكانية دراسة بعض أشكال تمظهر الدين الاجتماعية ، و لكن هذا يتم في معظم الأحيان من داخل تعاليم الحقيقة الدينية ، كدراسة التربية الدينية ، أو تكوين الأسرة على هدى التعاليم الدينية . فهي — أي التجربة الدينية الفردية — منفردة ، و لا يمكن بحال من الأحوال معرفتها ، إلا بخوض التجربة نفسها داخليا ، أي الإيمان بالمعتقدات و إتباعها عمليا .

إذ أن عدم الاقتناع بالمعتقدات أو إتباعها يحرم الإنسان من إدراك الحقيقة الكاملة (و هي جوهر الدين و الدين) .²

و الدين كظاهرة اجتماعية ، يدخل في علاقة تفاعلية مع الوحدات الاجتماعية الأخرى المكونة للمجتمع. هذه الحقيقة تمثل حجر الزاوية في علم الاجتماع الديني. و إذا كان هذا هو منطلق علم الاجتماع الديني ، فإن الأمر ليس كذلك في رأي كثير من الناس ، فالبعض قد ينظر إلى الدين على أنه السياق الذي يتحدى فيه الإنسان مع ما هو فوقه ، و على هذا فإن

التجربة الدينية شيء خارج عن التجربة العادية ، و قد يرى البعض الآخر الدين على أنه مظهر من مظاهر رد الفعل الغريزي للقوى الكونية. أما الفريق الثالث فيرى الدين على أنه مجموعة من الرسائل الظاهرة من الإله .

و من الملاحظ أن وجهات النظر هذه قد تقلل أو تتجاهل و ربما ترفض الجوانب السوسولوجية للدين. و هذا الأخير ينظر إليه على أنه في تفاعل مع الأنظمة و القوى الاجتماعية في المجتمع.³

فالاهتمام بالدين لدى كثير من الباحثين ، هو اهتمام بالنواحي الفردية أو الشخصية و قد مال البعض الآخر من الباحثين إلى التركيز على الجوانب الفكرية و الانتقالية للأخلاق و الاعتقاد . و على حد ما ذهب إليه وليام جيمس (w.james) فإنهم مهتمون بالمشاعر و الأفعال و خبراتهم في علاقاتهم بالمقدس . فاهتمام عالم الاجتماع بالدين يركز على الوظيفة العامة للدين في المجتمعات الإنسانية . فهو يهتم بالدين على أنه جانب من جوانب سلوكه و أنشطة الجماعة.⁴

أهمية الدين في المجتمع :

تظهر أهمية الدين في المجتمع من خلال الوظيفة الأساسية التي يقوم بها في المجتمع ، و هي وظيفة الربط و التلاحم القوي بين المعتنقين لدين واحد . يعني أنهم يتبنون فكرة واحدة تجمعهم تسمى العقيدة يجتمعون حولها و يحاولون فرضها و تجسيدها لإيمانهم الراسخ بنجاحاتها للمجتمع. و ما يؤكد لنا ذلك أقوال بعض رجال العلم و الدين و السياسة .

حيث يقول العالم الطبيعي (روبرت مللكان robert millikan) :إن أهم أمر في الحياة هو الإيمان بحقيقة المعنويات و قيمة الأخلاق ، و لقد كان زوال هذا الإيمان سببا في حرب عارمة و إذا لم نجتهد الآن لاكتسابه أو لتقويته فلن يبقى للعلم قيمة بل يصير العلم نكبة على البشرية.⁵

يرى هذا العالم أن فائدة العلم للمجتمع مرتبطة بالإيمان بالأخلاقيات و المعنويات ، وإلا استحال العلم إلى نكبة على المجتمع . لأنه دون الوازع الأخلاقي الذي يحث عليه الدين سيستخدم العلم لأغراض تضر المجتمع كاستخدام القنبلة الذرية لإبادة البشرية.⁶

و قال الرئيس السابق للولايات المتحدة الأمريكية ولسون:" وخلاصة المسألة أن حضارتنا إن لم تقتد بالمعنويات ، فلن نستطيع المثابرة على البقاء بماديتها ، وإنما لا يمكن أن تنجو إلا إذا سرى الروح الديني في جميع مساهماتها... ذلك الأمر الذي يجب أن تتنافس فيه معابدنا، ومنظماتنا السياسية ، وأصحاب رؤوس أموالنا ، و كل خائف من الله".⁷

إن تأكيد رئيس دولة تمثل أكبر قوة في العالم على أهمية المعنويات التي يقوم عليها الدين في نجاح أي دولة سياسيا و اقتصادية و اجتماعيا مهم جدا. ويؤكد لنا فعالية الدين في السياسة في كل أنظمة العالم ، لأن التجربة أوضحت أن السياسة المادية لم تكن مكللة بالنجاح و لم تفلح في رفع المعنويات بصورة دائمة. لذلك نرى أن سياسة الولايات المتحدة تعمل على بث الروح الدينية في شتى مؤسساتها ، و لا تقتصر على المؤسسات الدينية فقط لتنجح في مساعيها مهما كانت بعيدة على الأهداف الحقيقية للدين.

و يظهر ذلك من خلال تصريحات رؤسائها ، كتصريح الرئيس الأمريكي السابق (بيل كلنتون) يوم إلتقى بالرئيس الفلسطيني المرحوم ياسر عرفات في فلسطين لتوقيع معاهدة السلام مع إسرائيل. حيث قال أن هذه المناسبة هي مناسبة الحوار بين الأديان.⁸

و يقول محمد قطب في كتابه هل نحن مسلمون ؟:"إنما الإسلام...هو أن يكون كيان الإنسان كله متوجها إلى الله .هو أن تكون أفكار الإنسان و مشاعره و سلوكه العلمي كلها محكومة بالدستور الذي أقره الله ".⁹

يعني الكاتب من كلامه هذا إبراز أهمية الدين الإسلامي في المجتمع ، و الذي يتطلب أن يكون أفراد المجتمع مؤمنين به إيماناً صادقا و خالصا لوجه الله ، و يكون ذلك على مستوى تفكيرهم و أعمالهم ، و بذلك تظهر الأهمية الاجتماعية للدين الذي يصبح مصدرا تشريعيا في المجتمع .

و يصبح معمولاً به في كل مجالات الحياة ، مما يجعل العلاقة التي تربط بين أفراد المجتمع قائمة على العدل ، و لهذا فإن للدين أهمية قصوى في المجتمع لأنه يعتبر روحه الذي يعيش من خلالها ، حيث يعمل الدين على رفع الروح المعنوية للفرد و الجماعة ، بإتباع نظام معين من الأخلاقيات ، التي تضبط سلوك الناس قصد خدمة مصالح المجتمع من خلال العلاقة الروحية التي تربط بينهم ، و الناجمة عن العلاقة الروحية بينهم و بين الله عند المسلمين و معتنقي الديانات السماوية ، و بينهم وبين القوى المختلفة المعبودة لدى الجوس و الوثنيين و عبدة الحيوان و غيرهم.¹⁰

أما الاغتراب الديني فقد ورد في كافة الأديان على أنه الانفصال أو التجنب عن الله ، حيث أن اغتراب الإنسان عن الله أي انفصاله و هو يمثل لحظة حاسمة في تاريخ الوجود الإنساني ، و بمعنى أوضح يعني الخطيئة (SIN)، فقد جاءت الكلمة في الترجمات و الشروح اللاتينية للكتاب المقدس ، و بخاصة في العهد الجديد و في المواضع التي تتناول فكرة الخطيئة بوجه خاص.

و الخطيئة بحسب التصور الديني في الكتاب المقدس ليست مجرد تعد على شريعة الله و أحكامه و إنما هي في جوهرها انفصال عن الله.¹¹

و عبر كيركجور ، المفكر الوجودي عن وعي الإنسان بالخطيئة و من خلال هذا الوعي يضع ذاته وسط وجود جديد يتعلق بالخطيئة . بمعنى أن الإنسان يدرك ذاته بوصفه إنساناً آخر على وعي بالانقسام العميق داخل ذاته ، فالإنسان - كما يرى كيركجور - يقف وحده بسبب الخطيئة أمام الله.

و هذا الوعي قد يكون موضوع للعبارة و الوعظ ، و يمكن أن يكون موضوع تأمل صامت يقوم به و يضعه وجهها لوجه أمام ذاته الخاصة . و الإنسان قبل الخطيئة ليس أنا و لا يصبح أنا إلا في الخطيئة و بواسطة الخطيئة.

يقول كيركجور : عندما تدرك الذات أنها موجودة أمام الله فإنها تصبح لا متناهية ، و في هذه الحالة تعرف أنها خاطئة.¹² و تبرز فكرة الاغتراب في سفر التكوين في المأساة الإنسانية المتعلقة بالخطيئة الأولى و سقوط الإنسان ، و انفصاله المتمثل في قصة آدم و حواء و الثمرة المحرمة وبالخروج من الجنة ، و مواجهة الحياة المزدوجة القائمة على الصراع الدائر بين الجسد و الروح . فقد عصى آدم ربه " فأخرجه الرب الإله من الجنة ليعمل الأرض التي أخذ منها " .

و هذه دلالة على الشقاق الذي يحدث بين الله و الإنسان نتيجة السقوط في الخطيئة ، أو التردّي في المعصية.¹³ أي أن الجنة غربت عن آدم عليه السلام ، و نزل الأرض مغتربا بعدما عصى ربه ووقع في الخطيئة ، تلك إذا هي أولى مشاعر الاغتراب ، الذي يدخل في نطاق الاغتراب الديني.

و هذا النوع قديم قدم الوثنية ، فالإنسان الوثني يخرج و ينقل قوته و قدراته الفنية و يجسدها في وثن ، و بعدئذ يعبد هذا الوثن الذي ما هو إلا نتيجة جهده الإنساني. إن قواه الحيوية إنصبّت في شيء و تفرغت له ، و هذا الشيء - و قد أصبح وثنا - لا يشعر به الإنسان بوصفه نتيجة لجهده الإنتاجي ، بل بوصفه شيئا آخر سواه ، عاليا عليه ، غريبا عنه ، يعبده و يخضع له.

إن الإنسان الوثني ليركع لما صنعت يده ، فالصنم يمثل في نظره قواه الحيوية في صورة مغتربة.¹⁴

و من الممكن أن تحل القيم الدنيوية محل القيم الدينية ، و يتحول مصطلح الألوهية في الفكر البشري إلى لفظ مجرد بلا معنى ، فهذا اغتراب ديني يفهم من جانب واحد ، و يمكن وصفه أنه اغتراب فردي أيضا. و بعبارة أخرى فإن اغتراب البشر الذاتي هو طرف من الاغتراب الديني و يمكن أن يقال: " الاغتراب الفردي " أو " الاغتراب الديني " أو " الاغتراب عن الإله " بالمعنى نفسه .¹⁵

إن الابتعاد عن العبادات في مواجهة المشكلات المعيشية يعد من أسس الاغتراب في الحياة الدينية ، ذلك أن عدم إيمان القلب بالنصوص الدينية و النظر إليها بشبهة و عدم تطبيقها في أدنى المستويات يؤدي إلى الاغتراب ، و كذلك عدم الوصول إلى الطمأنينة النفسية في العبادات و عدم الانتهاء عن المحظورات الدينية الظاهرة لدرجة تحولها إلى عادات و ممارسات يمكن أن يعدل كذلك من الاغتراب الديني الذي يمكن مشاهدته في ميادين متعددة ، و بمظاهر مختلفة. وفي هذا الصدد فإن الكسل و الكذب و التطفل و الغيبة و النيمة و الإسراف و السرقة و الغش و التعدي و الزنا و الظلم و أمثالها من التصرفات التي نالت أكبر شهرة ، و التي يمكن أن تستخدم كوسيلة من الوسائل لتأمين المنافع الشخصية ، فإنها يمكن أن تعد نقصا في البناء الشخصي للإنسان كما يمكن أن تعد مظاهر مختلفة للاغتراب الديني أو من نتائجه .

إن أكبر إسهام يمكن تقديمه للإنسان من جهة الدين في مسيرة الاغتراب الديني هي رفع مستوى الوعي لديه ، مما يساعده في إدراك السوانح و الفرص و المهالك ، سواء تلك التي في داخله هو أم التي في محيطه. و هكذا فإن من أكبر المخاطر التي يواجهها متدينو عصرنا هي آليات الدفاع التدني الناتجة عن تدني مستوى الوعي بالدين ذاته . فالغالبية العظمى من الناس عندما يظهرون آليات الدفاع في حياتهم التعبدية ، يبتعدون و باستمرار عن واقعهم الشخصي ، فيحسبون أنفسهم يعيشون الواقع على الرغم من ممارستهم الكذب و النفاق كل لحظة . أي أن القيم التي يؤمنون بها و يتمسكون عندما تطالبهم بإصدار تصرفات تتوافق معها ، فإنهم يعجزون على المستوى الإجرائي من أدائها ، لبقائهم تحت تأثير المؤثرات الحياتية الأخرى مما يتسبب في دخول الفرد دوامة من المتناقضات يكون فيه الجانب المعرفي هو المؤثر الغالب.¹⁶

و النتيجة الطبيعية لذلك هي الانفصال بين الشخص و الدين ، بحيث يظهر للناس متدينا و هو ليس كذلك ، و أبسط دليل على هذا أن من يطبق التدنن بشكل مكثف ، يطبق ما ليس دينيا بشكل مكثف أيضا و هذا في الحقيقة اغتراب ديني ، فمن يبتعد عن التدنن الواقعي الحقيقي صعب أن يعود إليه ، وفي كل وقت يزداد الأمر صعوبة . وإن ما يبعد الشخص عن الميل إلى الاغتراب و العيش في الحياة الدراماتيكية و لكن هذا يختلف من شخص لآخر.

إن الأفراد الذين يمزجون آليات الدفاع في حياتهم الدينية ليس من السهل عليهم التخلص من هذا الواقع ، لأن الانقطاع عن الواقع الموجود في طبيعة آليات الدفاع نفسه موجود داخل آليات الدفاع الدينية. و النتيجة الطبيعية لهذا هي أن الذي يحسب نفسه أنه يطبق الدين أو يصور نفسه على أنه شخص متدين هو ليس كذلك ، و أبسط دليل على هذا الواقع هو أن الأفراد الذين يطبقون الأحكام (الطقوس) الدينية بكثرة في حياتهم ، يمارسون كذلك بكثرة التصرفات التي لم يوافق عليها الدين و بالطبع هذه الوقائع تمثل دلائل للاغتراب الديني. و بهذا الشكل فإن الفرد الذي يبتعد عن عالم الحقيقة الدينية ، تكون عودته إلى التصور الصحيح للدين أو العبادة صعبة كلما مرت الأيام.¹⁷

الماركسية و الاغتراب الديني :

ينظر ماركس إلى الاغتراب باعتباره العملية التي يفقد الفرد خلالها قدرته على التعبير عن ذاته التي تحولت وصارت متمثلة في استقلال إنتاج العمل بواسطة الرأسمالي. و يشير ماركس هنا إلى وظيفة الاغتراب بالنسبة لطبيعة البلوريتاريا ، و التي تشعر بذاتها مسحوقة بواسطة الاغتراب الذاتي. و من ثم يرى فيها أهميتها الخاصة و حقيقة وضعها للانساني. و هنا يذهب

ماركس إلى أن إنتاج السلع لا يحول العلاقات الاجتماعية للأفراد إلى أشياء فحسب ، بل يحول العلاقات المتداخلة لإنتاجهم إلى شيء أيضا. و يرجع ماركس حالات الاغتراب تلك إلى إن كل استعباد للإنسان متضمن في علاقة العامل بالإنتاج.¹⁸ وكما أشار ماركس فقد أصبح الإنسان مفصولا عن عملية الإنتاج نفسها . فإذا كان الإنسان قد أصبح مغتربا عن عمله اليومي ، فهو بالضرورة يكون قد اغترب أيضا عن نفسه و عن إمكانياته الخلاقة والأوامر الاجتماعية التي تحدد من خلالها إنسانيته ، و هذا في اعتقاده يعزله عن النوع الإنساني.¹⁹

و يرى ماركس إن الاستغلال و الاضطهاد في المجتمع الطبقي يعكس اغتراب الإنسان في الحياة اليومية و حرمانه من حقوقه المادية و المعنوية . فالاغتراب الديني يمثل اغتراب الإنسان على مستوى الوعي ، أي على مستوى البناء الفوقي ، فالإنسان لا يضع ذاته في العمل فقط ، أي عندما يأخذ الرأسمالي أو مالك وسائل الإنتاج جزءا من عمله ، بل يفقد ذاته كإنسان أيضا عندما يعي العالم بشكل مقلوب فلا يرى الأشياء التي حوله بصورة صحيحة ، بل مقلوبة و بشكل مشوه كما في الغرفة المظلمة ، فان هذه الظاهرة تنجم عن عمليات تطور حياة الإنسان التاريخية تماما كما في انقلاب الأشياء على شبكية العين.²⁰

يبحث ماركس في مشكلة الاغتراب في مخطوطاته الاقتصادية و الفلسفية ، إذ يضع الإنسان الحقيقي موضوع الفكرة ، ولا يكون هذا التبدل انتقالا بسيطا ، بل تحولا عميقا يساهم في تفويض تصور هيجل عن العملية التاريخية ، فبعدما كانت حركة العالم تستحيل إلى حركة فكرية و فلسفية ، أصبحت مع ماركس مختلفة حين اكتشف الإنسانية العينية مع نقد للمثالية و الانثروبولوجيا ، فأثرى مشكلة الاغتراب بمضمون تاريخي و اقتصادي و سياسي محدد . و يوضح كارل ماركس هذه المسألة بقوله : "صحيح أن الإنتاج الرئيسي في الأزمنة الأولى (مثل بناء المعابد ... إلخ في مصر و الهند و المكسيك) يبدو في خدمة الآلهة ، و الناتج يبدو مملوكا للآلهة ، غير أن الآلهة بذاتها لم تكن أبدا سادة العمل ، كذلك لم تكن الطبيعة ، و أي تناقض كان يمكن أن يقوم لو أن الانسان كلما زاد إخضاعه للطبيعة عن طريق عمله ، و كلما أصبحت معجزات الآلهة غير ذات شأن أمام معجزات الصناعة ، زاد اضطراب الإنسان إلى أن يتخلى عن بحجة الإنتاج و متعة التاريخ لصالح هذه القوى".²¹

يقول ماركس : "إن قهر الاغتراب يكون من خلال تغيير حاد في المجتمع ، عبر تغيير أسلوب الإنتاج في المجتمع ، فبتغيير الأسلوب الإنتاجي سيزول الاغتراب".²²

و لهذا فإن الاغتراب الديني يبقى موجودا ما دام هناك اغتراب أعمق ، و هذا ما يراه ماركس موجودا في كل المراحل التي تمر على المجتمع ماعدا المرحلة الشيوعية ، و هي المرحلة الأخيرة التي سيزول فيها كل اغتراب ، لاسيما الاغتراب الديني ، ذلك أن هذه المرحلة هي التي تقيم الإنسان الحقيقي ، الإنسان المجرد من كل اغتراب ، لأن الإنسان هنا سيكون في مأمن من التمايز الطبقي.

إن الدين لا يعني لماركس مجرد (موضعه) للجوهر الإنساني بل هو (تشبؤ) بمعنى الاغتراب الذاتي ، فالدين هو عالم مقلوب ، و هذا الانقلاب سيحدث بالضرورة مادام الجوهر الإنساني مفتقرا كجوهر إلى عالم حقيقي ، عالم لا تحكمه طبقة معينة ، و لهذا السبب فإن النضال ضد الدين الأخروي هو نضال ضد العالم الدنيوي ، الذي يجعله حالته يحتاج إلى الدين لاستكمال و تغيير ذاته ، فالبؤس الديني هو تعبير عن البؤس الواقعي و احتجاج ضده ، فالنقد الماركسي الديني لا يرجع إلى إضفاء طابع إنساني كما فعل فيورباخ ، بل مطالبة في التخلي عن أي شيء يسمح عموما بظهور الدين في ذاته.²³

و الاغتراب الديني بشكل عام يعكس الاغتراب الاقتصادي و الاجتماعي و يرتبط به ، إذ إن الاغتراب في الحياة اليومية يعكس نفسه في الفكر و في المعرفة ، انه التعبير النظري للاغتراب العملي للإنسان.

أصبح الإنسان غريب عن ذاته و المفكر غريبا عن جوهره ، أي عن الجوهر الطبيعي و الإنساني ، لذلك فأفكاره أصبحت أرواحا محنطة تقبع خارج الطبيعة و الإنسان ²⁴.

لقد استعار ماركس الكثير من فيورباخ حول مشكلة الاغتراب الديني ، و لكنه أظهر روحا أكثر نقدية لم يظهرها فيورباخ حول الإله ، و لم يكن راضيا عن محاولة فيورباخ في الإبقاء على التفرقة بين الدين و اللاهوت ، و عن تشييده دين إنساني يخلو من الله ، فعمل ماركس على إغلاق الفجوة بين الدين و اللاهوت ، و أعلن أن كل ضرب من الموقف الديني اغتراب لشطر من الماهية الإنسانية ، فكان هذا التوسع في معنى الاغتراب الديني سببا في وصف فلسفة ماركس مضادة للدين أكثر من القول كونها ملحدة ²⁵.

إن ماركس يرى أن أقهر الاغتراب لا يكون من خلال نقد الفلسفة للدين عن طريق استئصال العناصر الأسطورية التي تكمن في الأديان ، بل انه يتجاوز ذلك مبتعدا عن فيورباخ في قوله إن الاغتراب الديني ما هو إلا تعبير عن اغتراب عيني واقعي ، وهو ذلك الذي يقوم في ميدان الحياة الاقتصادية للإنسان.

و الاغتراب الديني بما هو كذلك لا يكون إلا في نطاق الوعي ، أما الاغتراب الاقتصادي فهو اغتراب الحياة اليومية ²⁶. و من هنا فان الاغتراب ليس له طابع ديني فحسب ، و إنما يتجلى في عدة ميادين كالطابع السياسي والاجتماعي ، و إن إلغاءه لا يستدعي نقد الدين فقط ، و إنما كذلك نقد الدولة و المجتمع. الإيديولوجية و الاغتراب الديني :

إن مفهوم الايديولوجية هو أن أكثر المفاهيم التي جاء بها ماركس شولا و ابتكارا، و هو أيضا أصعبها و أكثرها غموضا. لقد تناول ماركس معنى هذه الكلمة بالتغيير ، فبعدما كانت الايديولوجية تشير إلى نظرية تتولى الشرح و التوضيح ، أصبحت تدل على أفكار توضع من قبل أفراد معينين ، و هذا ماعملت عليه الطبقة المسيطرة في كل عصر. يقول ماركس : "إن الأفراد الذين يؤلفون الطبقة السائدة يملكون فيما يملكون الوعي ، و بنتيجة ذلك يفكرون ، و بالتالي بقدر ما يسودون على أنهم طبقة ، فمن البديهي أن هؤلاء الأفراد يسودون على نطاق كامل ، و بالتالي فإنهم يسودون ضمن أشكال سيطرتهم ، على أنهم كائنات مفكرة أيضا ، على أنهم منتجون للأفكار و هم ينظمون إنتاج أفكار عصرهم و توزيعها ، و بذلك فإن أفكارهم هي أفكار العصر السائدة ²⁷.

و يصف كارل ماركس بهذه الإيديولوجية هؤلاء أي مفكرو الطبقة المسيطرة (أيديولوجيوها الفاعلون) إن إهتمام ماركس بهذه الإيديولوجية هو باعتبارها حالة الاغتراب المؤثرة في المجتمع بأكمله، و لتخطي هذه الحالة عندما يجري تخطي الدولة الحديثة بالديمقراطية اللاتطبيقية و الجذرية المسبوقة بالإدارة الصناعية أكثر من العمل المنظم الاجتماعي المشترك و الشامل ²⁸.

يريد ماركس بقوله هذا أن التخلص من كل إيديولوجية بما فيها الإيديولوجية الدينية ، هو بإقامة المجتمع الشيوعي مجتمع الديمقراطية اللاتطبيقية ، ذلك المجتمع الذي سوف يتحرر من كل قيد و كل اغتراب ، سواء كان سياسيا أو اقتصاديا أو دينيا. إن ماركس لا يرى في الدين سوى إيديولوجية تضلل الإنسان عن حقيقة وجوده ، و يرى في الإيديولوجية أنها إسقاط التصور الكاذب الذي يصنعه الناس عن أنفسهم من جراء انقسام المجتمع على ذاته. و يركز ماركس في تحليله إلى مثال الإيديولوجية الدينية كما لو أن كل إيديولوجية كانت تكرر على نحو معين عمل كالايديولوجية دينية سابقة لها ، فالديانات

حسب قول ماركس هي نتاج الفاعلية الروحية ، فاعلية الفرد و الجماعة . إنها تهدف إلى أن تروج صورة معينة للإنسان و العالم ، و إلى تبرير تصرفات و ممارسات ، و لكن موضوعها الفعلي ليس ماتتكلّم عليه ، بل إن موضوعها ماتدافع عنه بصورة ضمنية.²⁹

و عندما ينظر ماركس إلى أن الدين هو شكل مغترّب لوعي الذات ، فالدين هو وعي الذات ، أو الشعور بالذات عند الإنسان الذي لم يتعرف على نفسه بعد ، أو أضاع نفسه مرة أخرى ، فالاغتراب لا يحول دون الاعتراف بالبعد العملي لدين من الأديان.

إذن هناك في الدين بعد نظري و آخر عملي ، فأما النظري فهو ذلك الذي ينطوي عليه الاغتراب الديني ، أما البعد العملي فهو ذلك الذي يتمثل بالإيديولوجيات الدينية.³⁰

إن العامل المادي هو المؤثر على الدوام في المجتمع البشري ، فالتطبيقية لم تظهر إلا مع ظهور الملكية فأصبح هناك سيد و مسود ، مما أدى ذلك إلى احتدام طبقي بين أفراد المجتمع . كما إن هذه الطبيعة أفرزت إيديولوجيات تبريرية لسادة المجتمع ، لأن الإيديولوجية لا تظهر إلا مع وجود مجتمع طبقي ، و من الإيديولوجيات التي ساهمت في اغتراب الإنسان و تفوقه في مكانه هي الإيديولوجية الدينية ، ذلك أنها تساهم في جعل المجتمع مريضاً مستكيناً لا ثورياً ، فمن أجل مجتمع فعال غير مريض أراد ماركس أن يجهز على الأفكار الدينية ، ذلك أنها أفكار وهمية لا وجود لها في أرض الواقع. حيث رأى ماركس أن مجتمع العقل هو المجتمع الشيوعي ، لأن هذا المجتمع هو المجتمع الذي يؤمن بالإنسان المتحرر من كل أصناف الإيديولوجيا القاهرة و المعوقة لعمله ، كما رأى ماركس أن هذا المجتمع هو خال من كل تفرد بالملكية ، بل إن الملكية هنا هي عامة لكل المجتمع ، و بهذا ستحافظ على هيكلية المجتمع من دون حدوث أي فجوة فيه لان الملكية العامة لا تبعث المجتمع الطبقي.³¹

الاغتراب في الإسلام :

لقد أوضح فتح الله خليف أن الاغتراب في الإسلام جاء من ثلاث درجات هي : اغتراب المسلم بين الناس ، اغتراب المؤمن بين المؤمنين ، و اغتراب العالم بين المؤمنين ، فغربة العلماء هي أشد أنواع الاغتراب لقلبتهم بين الناس ، و قلة مشاركة الناس لهم.³²

فقد زالت الغربة عن المسلمين حين ظهر الإسلام و انتشرت دعوته و دخل الناس في دين الله أفواجا ، و لكن سرعان ما أخذ الإسلام في الاغتراب حتى عاد كما بدأ ، فلم يمض قرن من الزمان على الإسلام حتى وصف المسلمون بالغربة. و جاء في الرسالة القيشيرية لأبي القاسم عبد الكريم بن هوزان القشيري (1940) و إذا كانت الغربة قد أسرعرت إلى الإسلام في عصوره المبكرة فما حال الإسلام في زماننا . و كيف لا يغترّب الإسلام في زماننا بعد أن زال الورع و طوي بساطه ، و اشتد الطمع ، و ارتحل عن القلوب حرمة الشريعة ، و أصبح قلة المبالين بالدين ، و رفضوا التمييز بين الحلال و الحرام ، و أدانوا بترك الاحترام ، و طرح الاحتشام ، و استخفوا بأداء العبادات ، و استهانوا بالصوم و الصلاة ، و ركنوا إلى إتباع الشهوات ، فعاد الإسلام غريباً كما بدأ حين تفشت في المسلمين فتنة الشبهات و الشهوات .³³

و مما لاشك فيه أن القرآن و السنة يشيران إلى الزهد في الدنيا ، لا إلى هجرها و الخروج منها أو العيش فيها عيشة الأموات . قال الله تعالى : " قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده و الطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القامة ". (الأعراف : 32)

إذا فالإسلام لم يحرم التمتع بالحلال من أمور الدنيا ، و لكن الذي حرمه هو الانغماس في شهواتها التي تشغل القلب عن ذكر الله ، و على ذلك يكون الاغتراب بالمعنى الإسلامي اغتراب الحياة الاجتماعية الزائفة الجارفة ، و اغترابا عن النظام الاجتماعي غير العادل .

و الملاحظ في عصرنا هذا أنه أتى بالعديد من التغيرات في كافة المجالات الاجتماعية و الاقتصادية و السياسية و التربوية ، مما أدى إلى طمس معاني الحياة الإنسانية ، و عجز الإنسان عن التوافق مع هذه التغيرات ، و اضطراب منظومة القيم . و بالتالي الشعور بالعجز و اللامعنى و اليأس ، و غيرها من المظاهر السلبية التي تكشف عن العديد من الأمراض و الانحرافات و الاضطرابات النفسية و الاجتماعية .³⁴

و يعد الاغتراب أحد العوامل المهمة و المسؤولة عن أزمة الإنسان في العصر الحديث ، حيث أصبح منفصلا عن مجتمعه الذي يعيش في إطاره ، و حتى عن نفسه و أفعاله ، و بالتالي أصبح عاجزا عن تحقيق ذاته ووجوده . و من أسباب تزايد الاغتراب الديني في هذا العصر هو قصور عمليات و أساليب التنشئة الاجتماعية التي يبنها المنشئون مع الأطفال ، و عدم العناية بالتربية الدينية.³⁵

و يعتبر الإيمان عاملا مهما في تحقيق الصحة النفسية للإنسان في الحياة بوجه عام ، و في العصر الحديث المليء بالتغيرات بوجه خاص. وهذا ما كشفت عنه العديد من البحوث و الدراسات النفسية الحديثة في كل من أوروبا و أمريكا ، حيث تبين أن الصحة النفسية المتزنة للأشخاص المترددين على دور العبادة (سواء المساجد أو الكنائس أو المعابد) تتفوق بشكل جوهري على غيرهم من غير المترددين عليها أو ممن لا عقيدة أو لا إيمان لهم.

كما تبين أن الرفاهية و حدها لا تحقق التوازن النفسي أو الرضا الكامل في الحياة . و هذا ما ورد ذكره بوضوح في القرآن الكريم ، قال تعالى : "الذين آمنوا و تطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب " (الرعد:28)

و جاءت الدراسات بعد ذلك بمئات السنين كي توضح أن للقرآن الكريم تأثيرا فعالا في إدخال السكينة و الطمأنينة للنفس البشرية.

ففي دراسة قامت بها إحدى الجمعيات الطبية الإسلامية بالولايات المتحدة الأمريكية على مجموعة من المواطنين الذين لا يتحدثون العربية و من غير المعتنقين للديانة الإسلامية ، و جميعهم خضعوا لجلسات استماع طويلة لآيات قرآنية بالعربية و بطريقة التجويد المتعارف عليها.

و قد أظهرت هذه الدراسة أن هناك تأثيرا فسيولوجيا ، و حيويا ، و بيولوجيا ، بشكل يكشف عن بعض المؤشرات الدالة على الهدوء النفسي ، و الذي تصاحبه السكينة و الطمأنينة في الأشخاص الذين إستمعوا للآيات القرآنية.³⁶

و حول علاقة الاغتراب بالتدين ، قام الباحث بركات حمزة بدراسة هذه القضية لدى عينة من طلاب الجامعة (ن=632) واعتمد الباحث في دراسته للعلاقة بين هذين المتغيرين على مقياسين أحدهما للاغتراب و يضم خمسة مقاييس فرعية هي: الشعور بالعجز ، و انعدام المعايير ، و الغربة عن الذات ، و انعدام المعنى ، و العزلة الاجتماعية ، و المقياس الثاني للتدين . و أسفرت نتائج هذه الدراسة عن ارتباط الاغتراب بالتدين ارتباطا سلبيا جوهريا لدى العينة الكلية و العينات الفرعية.

مما يعني أن الشعور بالاغتراب يقتزن بحياة خالية من الجانب الديني و الروحي.³⁷

و لعل أوسع معنى للاغتراب في الإسلام هو الاغتراب عن الحقيقة ، حيث إن الفرد لا يمكنه تصور واقع ما يحدث في نفسه و ما يدور حوله في هذا السياق ، فالإنسان الذي يحمل النفخة الإلهية يسمى في القرآن بالموقن . و في هذا يقول المولى تبارك و تعالى : " و في الأرض آيات للموقنين * و في أنفسكم أفلا تبصرون " . (الذاريات : 20-21) .

لذا يعني الاغتراب هنا نقصا في معرفة الإمكانيات الداخلية و الخارجية للإنسان و من ثم عدم وعيه بالمهالك التي تحيط به ، و هذا القصور المعرفي تؤكد الجاهلة بالله .³⁸

و من المهم أن نلاحظ التدين الحقيقي في استخراج الأخلاق و السلوكيات الموجهة لحياة البشر مثل : (البر ، والصدق ، و العدل ، و الاجتهاد ، و الإنتاجية ، و التحرر ، و التعاون ، و الإيثار) ، في حين أن اثنين من أبسط الأمثلة على التدين الزائف ، ذلك التزهيب الشديد للبشر ، إن هم ارتكبوا ذنبا صغيرا ، أو الإفراط في وصف النعيم لمن فعل من الصالحات شيئا يسيرا ، أو هؤلاء الذين يقصرون التدين على الجانب الشكلي في العبادات كالصلاة و الصيام و الحج و الزكاة فقط . و من أجل الإسهام الإيجابي في مسيرة الاغتراب الديني لا يمكن أن يكتفى فقط بالمعرفة الصحيحة به .

ففي هذه الحالة يلزم بتغيير حياة البشر نحو الاطمئنان بلزوم جناب الله ، فكما يعد اغترابا اعتقاد الفرد بالدين الذي يؤمن به دونما تطبيق فعلي له ، فكذلك تكوين قناعات حول الدين بناء على مراقبة أمثال هؤلاء المتدينين الشكليين يعد اغترابا ثانيا³⁹ و لهذا فإن أداء العبادات بإخلاص تقرب الوجود الإلهي إلى التصور البشري ، فتؤسس المعية ، فالدين الذي تمارس فيه العبادات بإخلاص لا يعدو أن يكون أكثر من فلسفة جافة ، فوجود الله عز وجل في المنطقة النشطة من شعور الفرد ، و استمرارية وجوده هناك تنهي الفراق بين الخالق و الإنسان و هذا الوضع يعبر عنه بالتدين الكامل ، مصداقا لقوله تعالى : " إن الصلاة تنهى عن الفحشاء و المنكر " (العنكبوت : 45) ، و تشير الآية في الحقيقة إلى أن الفرد المسلم الذي توحد شعوره لله تعالى في الصلاة قادر على الابتعاد عن المنكرات .

مما سبق ذكره يمكن أن نقول أن الاغتراب الديني هو ابتعاد الفرد عن الدين ، و من ثم ابتعاده عن الله ، و عدم الامتثال لأوامره ، و عدم الابتعاد عن نواهيه . و هذا في جميع المجتمعات على اختلاف أديانها ، و مما نلاحظه في مجتمعنا المسلم من اغتراب ديني من خلال الممارسات و السلوكات اليومية التي يمارسها الفرد المسلم نتيجة ضعف عقيدته مما يجعله يبتعد عن الله ، و هذا الوضع هو نتاج لقصور العلوم الدينية ، أو عدم كفايتها إلى جانب التصور الديني المغلوط فيه حيث إن كثيرا من الناس يتصورون الدين على أنه عبء و مسؤولية ملقاة على عاتقهم ، و لا ينظر هؤلاء الناس إلى الدين على أنه فرصة قرب حقيقي بالله ، أو مصدر للتوافق الروحي مع الكون و الناس .

الهوامش

¹ هائل حفيظة ، الاغتراب الديني في المجتمع الجزائري ، رسالة دكتوراه في علم الاجتماع الديني ، جامعة الجزائر -02- ، 2016 ، ص 42 .

² عبد الباقي الهرماسي و آخرون ، الدين في المجتمع العربي ، مركز الدراسات الوحدة العربية ، الجمعية العربية لعلم الاجتماع ، ط 2 ، بيروت ، 2000 ، ص 247 .

³ محمد أحمد محمد بيومي ، علم الاجتماع الديني و مشكلات العالم الاسلامي ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، 2006 ، ص 89 .

⁴ محمد أحمد بيومي ، مرجع سابق ، ص 102 .

⁵ محمد عبد الله دراز ، الدين (بحوث ممهدة لدراسات تاريخ الأديان) ، دار القلم ، ط 2 ، الكويت ، 1970 ، ص 100 .

⁶ ثريا التيجاني ، القيم الاجتماعية و التلفزيون في المجتمع الجزائري ، دار الهدى ، عين مليلة ، الجزائر 2011 ، ص 90

⁷ محمد عبد الله دراز ، نفس المرجع السابق ، ص 101 .

⁸ ثريا التيجاني ، مرجع سابق ، ص 91 .

- ⁹ محمد قطب ، هل نحن مسلمون ، دار وهبة ، القاهرة ، بدون تاريخ ، ص 11.
- ¹⁰ نريا التيجاني ، مرجع سابق ، ص 92 .
- ¹¹ محمود رجب ، الاغتراب ، دار المعارف ، ط 2 ، القاهرة ، 1986 ، ص 38 .
- ¹² أمل مبروك ، مشكلة الإنسان في الفكر المعاصر ، دار قباء للطباعة و النشر و التوزيع ، القاهرة ، 2004 ، ص 108.
- ¹³ - فيصل عباس ، الاغتراب : الانسان المعاصر و شقاء الوعي ، دار المنهل ، لبنان ، ط 1 ، 2008 ، ص 20 .
- ¹⁴ رجب محمود ، الاغتراب انواع ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف و النشر ، مصر ، 1965 ، ص 21 .
- ¹⁵ فاروق قراجه ، الدين و الاغتراب : الفرص و التحديات ، ترجمة إسماعيل يلmez ، مجلة الإلهيات الأكاديمية ، جامعة آتاتورك ، تركيا ، المجلد 2 ، العدد 3 ، 2016 ، ص 55 .
- ¹⁶ فاروق قراجه ، مرجع سابق ، ص 58 .
- ¹⁷ فاروق قراجه ، مرجع سابق ، ص 59 .
- ¹⁸ محمود رجب ، الجدل و الاغتراب عند جورج لوكاتش ، دار الهلال ، القاهرة ، 1968 ، ص 135 .
- ¹⁹ - قيس النوري ، الاغتراب : اصطلاحا و مفهوما و واقعا ، عالم الفكر ، المجلد 10 ، العدد 1 ، 1979 ، ص 40 .
- ²⁰ كارل ماكس و فريدريك أنجلز ، الايديولوجية الألمانية ، ترجمة فؤاد أيوب ، دار دمشق للطباعة و النشر ، سوريا ، 1976 ، ص 30.
- ²¹ كارل ماركس ، مخطوطات عام 1844 الاقتصادية و الفلسفية ، معهد الماركسية اللينينية التابع للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي ، دار الطباعة الحديثة ، القاهرة ، 1974 ، ص 76.
- ²² مجموعة من المؤلفين عنهم على عبود المحمداوي ، الماركسية الغربية و ما بعدها ، تقديم : أم الزين بن شيخة المسكيني ، دار عدنان ، ط 1 ، بغداد ، 2014 ، ص 79.
- ²³ مجموعة من المؤلفين عنهم على عبود المحمداوي ، مرجع سابق ، ص 80 .
- ²⁴ فيصل دراج ، الماركسية و الدين ، دار ابن خلدون ، بيروت ، 1981 ، ص 64 .
- ²⁵ جيمس كولنر ، الله في الفلسفة الحديثة ، ترجمة فؤاد كامل ، مكتبة غريب ، بدون تاريخ ، ص 357 .
- ²⁶ محمود رجب ، الميتا فيزيقا عند الفلاسفة المعاصرين ، دار المعارف القاهرة ، ط 2 ، 1986 ، ص 263 .
- ²⁷ مجموعة من المؤلفين عنهم على عبود المحمداوي ، مرجع سابق ، ص 75.
- ²⁸ بكرى محمد خليل ، ترجمة على الموسوعة الفلسفية (ماكميلان) ، مجلة فصيلة تصدر عن دار الحكمة ، بغداد ، 2001 ، ص 93 .
- ²⁹ أحمد حيدر ، من الايديولوجيا إلى الفلسفة و الدين ، دار الحوار للنشر و التوزيع ، سوريا ، 2002 ، ص 105 .
- ³⁰ مجموعة من المؤلفين منهم على عبود المحمداوي ، مرجع سابق ، ص 76 .
- ³¹ مجموعة من المؤلفين عنهم على عبود المحمداوي ، مرجع سابق ، ص 88 .
- ³² فتح الله خليف ، الاغتراب في الإسلام ، عالم الفكر ، المجلد العاشر ، العدد الأول ، 1979 ، ص 83 .
- ³³ عبد اللطيف محمد خليفة ، دراسات في سيولوجية الاغتراب ، دار غريب ، القاهرة ، 2003 ، ص 101 .
- ³⁴ عبد اللطيف محمد خليفة ، مرجع سابق ، ص 102 .
- ³⁵ Cahoone lawson , being alone in the modern civitas . in : L . S. Rounr (Ed) lone liness , notre dame : univ, of notre dame press , 1998 , pp 197-217 .
- ³⁶ محمد الفار ، اذا الايمان ضاع فلا امان ، مقال بجريدة الاخبار المصرية ، الصفحة الخامسة ، بتاريخ 1999/09/03 .
- ³⁷ بكرات حمزة حسن ، الاغتراب و علاقته بالتدين و الاتجاهات السياسية لدى طلاب الجامعة ، رسالة دكتوراه ، كلية الاداب ، جامعة عين شمس ، 1993 .
- ³⁸ فاروق قراجه ، مرجع سابق ، ص 55 .
- ³⁹ فاروق قراجه ، نفس المرجع ، ص 57 .